

تاريخ القرآن

(39) وناهيك في أسرار تعدد النزول حكمة و يقينا واستمرارا لجدة القرآن، وحضوره في رخمة الأحداث، وتجدد الوقائع، وطبيعة الرسالة المتدرجة في تعاليمها من الأسهل إلى السهل، ومن السهل إلى الصعب، ومن الكليات العامة إلى التفصيلات الجزئية. والوحي ينظر إلى الناس باعتبارهم الهدف الرئيسي من تنزيل القرآن، قصد هدايتهم، ورجاء إثابتهم إلى الحق، فاهتم بهذا العنصر في سبب النزول مفردا، وصرح بذلك سبحانه وتعالى: (وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) (1). 1 – وقد أفاض القدامى من العلماء والمفسرين في أسرار التنجيم في النزول، استفادوا قسما منها من القرآن، واجتهدوا في القسم الآخر، فمن الأول تيسير حفظ القرآن، وتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعرفة الناسخ من المنسوخ، والإجابة عن أسئلة السائلين (2). ومن الثاني كون القرآن أنزل وهو غير مكتوب على نبي أمي، كما حكى ذلك عن أبي بكر بن فورك (ت: 406 هـ) (3). وقد لاحظ باحث معاصر أن القدامى قد أدركوا حكمتين في ذلك هما: تجاوب الوحي مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتجاوبه مع المؤمنين (4). 2 – وإذا كان ما فهمه القدامى – كما يدعى – يقف عند هذا الحد، فلا ينبغي عند الباحثين المحدثين أن يقف عند حدود معينة، وعليهم الإمعان والإيغال في الاستنتاج. وإن كان كل ما تقدم هو الصحيح، ولكن لا مانع أن يضاف إليه بأن القرآن الكريم – كما يبدو من منهجيته الاستقرائية – يريد كتابة التاريخ الإنساني، بكل ما في هذا التاريخ من مفارقات وأحداث ونوازع وتطورات، والتاريخ إنما يكتب في جزئياته، ومن ضم _____ (1) الإسراء: 106. (2) ط: السيوطي، الاتقان: 1 | 85 – 121 + أبو شامة: 28. (3) ط: الزركشي: 1 | 231. (4) ط: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: 52.